مسرحية

سيدة الوركاء Babylonische Mona Lisa

تأليف: حازم كمال الدين*

مسرحة: حازم كمال الدين، كارل ريدرز (المسرح الملكي البلجيكي)، تانيا پوپه (فنّانة بلجيكية كبيرة)

شخصيات المسرحية

صحافي

جندي أميركي

مدير المتحف

مذيعة

صحافية

حارس

نوال

سيدة الوركاء

جلجامش

أنكيدو

ممثلة وموسيقيّ يلعبان كلّ الأدوار

تانيا پوپه تؤدّي دور سيّدة الوركاء في إطار المهرجان المسرحي السنوي البلجيكي ـ الهولندي

* ـ أستاذ جامعي عراقي مقيم في بلجيكا منذ ٢١ عامًا. مسرحي وكاتب. قُدّم هذا النص في عدة بلدانٍ أوروبية.

افتتاح أول

نثار مقابلات تلفزيونية (الممثلة تلعب كلَّ الأدوار)

صحافي : الجيش الأميركي الآن موجود في المتحف الوطني العراقي بشكلٍ مباشرٍ ومكثَّفٍ ولكنّ اللصوص اختفوا، وفي حوزتهم كنوزٌ تعود لآلاف السنين.

جندي أميركي: نعم.. وعندما أسقطْنا بغدادَ، أعني عندما فَتَحْنا بغدادَ، أعني عندما حرَّرنا بغداد... اعترضتْنا صواريخ انطلقتْ من المتحف. لهذا لم ندخلْ. أتفهم؟

صحافي : هل كان المتحف مسجَّلاً عند دخولكم على أنَّه موقعٌ يستدعي الحمايةَ؟

صحافي : لا.. أعني.. لقد كنّا.. كنّا نحارب. كنّا نحارب دفاعًا عن النفس. أتفهم؟! عندما تدافع عن نفسك ليس لديكَ وقتٌ للتفكير الطويل.. عليك أن تردّ على مراكز انطلاق النيران فقط.. وعندما نهبوا ودمّروا المتحف، كنّا ما نزال نحارب.

(لقاء مع مدير المتحف)

مدير المتحف : لقد سرقوا سيدةَ الوركاء. لقد سرقوا القاعدةَ نفسَها...

صحافي : سرقوا ماذا؟.

مدير المتحف : سيدة الوركاء.

صحافي : الـ.. الـ.. الـ... هل بإمكانك أن تتهجّى الاسمَ لو سمحتَ؟

مدير المتحف : سيدة.. الـ.. ور.. كاء.

صحافي : الـ.. ور.. ور؟

مدير المتحف : واوا.. راء.

صحافي : عفوًا؟

مدير المتحف : واو.. راء.

الصحافي : كاف.. ألف!

مدير المتحف : كاف.. ألف!

الصحافي : كاف.. أليف! ومن هو هذا أو هذه الـ.. الـ.. الور.. ور.. ور؟

مدير المتحف : إنَّها تمثالُ آلهةٍ من عصر سومر. هذه القطعة المصنوعة من الرخام تمثِّل أحدَ الإبداعات الفنية المبكّرة للتعبير عن الوجه البشري، ويعود تاريخُها إلى حوالى ٣٥٠٠ عام قبل الميلاد. إنَّها رأسُ امرأةٍ بلا جسد.

الصحافي : وما أهميةُ هذه التمثال؟ هل يمكنك أن تعيد؟

مدير المتحف : إنّ اسمَ هذه السيدة المفقودة هو الموناليزا السومرية!

الصحافي : الموناليزا! الموناليزا السو.. سو.. هل يمكنكَ أن تعيد لي الاسم؟

(صحافية مع مختصّة بالآثار في استوديوهات التلفزيون الهولندي)

المذيعة : ما هو شعورُكِ عندما رأيتِ المتحف؟

الصحافية : أصابتني صدمة! لم أصدِّقْ ما رأت عيناي، لكنّي مع ذلك.. مع ذلك.. كنتُ أقول إنّ الـ.. الـ..

المذيعة : نعم! نعم.

الصحافية : لقد أصابني الرعبُ الحقيقي في اليوم التالي!، عندما... عندما..

المذيعة : نعم؟

الصحافية : لقد أصابني الرعبُ الحقيقي عندما عرفتُ أنّ اللصوص أفرغوا الأقبيةَ السريةَ، حيث تَقْبع النسخُ الأصلية.

مسرحية

(أحد حرّاس الأقبية)

الصحافي : هل كانت القطعُ المسروقةُ قطعًا أصلية؟

الحارس : بعضها. البعضُ الآخر سرقوه من الأقبية السرية.

الصحافي : ولماذا لم تمنعوا اللصوصَ، أنتم الحرس؟

الحارس : انتهت دوريّتي عصرَ اليوم الذي سقطتْ فيه بغداد. عندما عدتُ إلى المتحف بعد يومين، عرفتُ أنّ المسؤولين في المتحف لم يسلّموا السلاحَ إلى الدورية اللاحقة!

(نوال أمين، مساعدةُ مديرة المتحف. صحافيٌّ يلاحقها في المتحف)

صحافي أجنبي: ما هو شعورك وأنت ترين هذا الركامَ على الأرض؟

نوال : تسألني عن شعوري؟! أشعر وكأنّني فقدتُ أهلي. لماذا؟ لماذا؟ لييييش؟! (تبكي) أين سيدة الوركاء؟ سرقوها؟ لا؟ عزه!!! (تلطم. تتّجه إلى طابقٍ آخر. ترى لصوصًا). اطلعوا. اطلعوا برّه! اللعنة على مَنْ جوّعكم وجعل منكم عبيدًا ولصوصًا!

افتتاح ثانٍ

رحلةُ العالم السفلي (تتحوّل الممثّلة إلى تمثال في المتحف: سيدة الوركاء)

تمثال من المرمر

سيدة الوركاء: إبّان مكوثي في فرن المتحف المرعب المكلّف بتنظيفي مما عَلِقَ بي، راحت تنتابني خيالاتٌ عن طباع التماثيل التي سأصطفّ إلى جانبها في الطابق السابع خلفَ الزجاج السميك. وكلما حَمِيَ وطيسُ النار، تراقصتْ تلك الشخصيات أمام ناظريّ! جدران الفرن الفولاذية السميكة كانت تَفْصلني عن العالم وتزيد في صعوبة تحديد إنْ كانت تلك الشخصيات حقيقةً أو محضَ خيال.

كانت مهمةُ الصهريج إنقاذَ ما تبقّى منّي: وجهي! فالباحثون يزعمون أنّ جسدي تَهشّم أثناء عمليات التنقيب. وحين وُضعتُ في نهاية الممرّ يسارًا وأخذتُ اسم «تمثال رقم ٣٢: من أصل سومري،» أصبحتْ لي قيمةٌ جديدة. صار اسمي **سيّدة الوكاء**! وراح كلُّ زائر يقف أمام وجهي وقفةَ إجلال، علمًا أنّ أحدًا لا يعرف عمري.

اتفق الباحثون على أنّي أعود إلى الفترة السومريّة. فلقد عثروا على ألواح تقول إنّ جلجامش، ملكَ الوركاء، يتذكّر أنّني كنتُ موجودةً عندما فَتح عينيْه على الدنيا، وعَثروا على دعاءٍ يناديني فيه بسيّدة الوركاء. بيْد أنّ الحلي والأحجار الكريمة التي عثروا عليها إلى جانبي لا تتطابق مع معطيات الباحثين حول فترة وجودي.

ثمة فكرة عنّي، فكرةٌ تجريدية، لكنّني في الحقيقة لست كائنًا حقيقيّاً: فإذا نظرتَ عند الغروب، رأيتَ وجهي تكسوه غضونُ امرأةٍ عجوز. وإذا نظرتَ فجرًا، بدوْتُ كوجه فتاةٍ غاويةٍ ذاتِ بشرةٍ مطرّزةٍ بالأوشام. أنا وهمٌ، أو شكلٌ من أشكال الوهم. وعلى الرغم من أنّني أُشيع الاعتقادَ بأنّني حيّة، فأنا بكلّ بساطة غيرُ موجودة.

فماذا عليّ أن أفعل بفمي؟ وماذا أفعل بمساءاتي وأيامي؟

لا جسد لي، ولا حبيب. لا بيت، ولا فراش.

ومع ذلك، فكلُّ مَنْ أمنحه نفحةً منّي، يصبح جليلاً ثريّاً، ويأخذ بتوزيعي كما يوزّع القسُّ جسدَ المسيح في كنيسة.

أُغلقُ عينيَّ. يمرّ الزمانُ في خاطري. أتذكّر أنّ قرونًا طويلةً مرّت. أشعر أنّ جذورَ القصب والأشنات قد انتشلتني من قاع الأهوار. جرفتني المياهُ وطافت بي في أقنيةٍ مرصوفةٍ بجذور البردي الكثيف. حَفرتْ أنفاقًا تحت الطين، كهوفًا تلاطمتْ فيها المياهُ بعنف. هكذا رحلتُ مع المياه، قرونًا تلو قرون. حتى توقّف جريانُ المياه وغمرتْني أسرابٌ من

القواقع. اصطدمتِ القواقعُ بجسدي وراحت تتصارع بحثًا عمّا يؤكل منّي، حتى استحالت إلى زوبعةٍ ما تحت أرضية.

توقفتْ حركةُ الأسراب بعد التصادم والانزلاق. تجمّد الطينُ حول جسد: صار قبرًا لجسدي.

...

شمس! إنّها الشمس!

من هنا وهناك، ومن خلال شقوق صغيرة في الطين المتصلّب، شعرتُ فجأةً بحرارة الشمس تَضْرب جلدي. ولكنّ قبل أن أتمتّع حقّاً بالحرارة، داهمني صخبُ الإشعاعات وراح يلسع شفتيّ. وسرعان ما راحت الصدوعُ تمتلئ برمالٍ ناعمة. صار الطينُ المتيبّس كتلةً من الرمال الجافة الرقيقة، جعلتْها الريحُ تغمرني، فانفصل جسدي عنّي، ولم يبقَ لي سوى وجهٍ غاص في أعماق الرمال. سنين ووجهي يتقلّب في عتمة الرمل، حتى انقذف ذاتَ يومٍ على صفحة الضياء.

فتحتُ عينيَّ. الضوء يعمي عيني. هل أدفن نفسي مجدّدًا في الرمال؟

رأيتُني أنسردُ في حكاية.

بقعٌ صغيرةٌ ملوّنة تظهر في سماء عينيَّ المغلقتين. أحدّق في البقع والألوان الغريبة وهي تنطفئ تدريجيّاً في سماء أجفاني، مخلّفةً ضبابًا. من بطن الضباب يتقدّم كائنٌ ما. أمعن النظرَ فيه. تتقدّم الملامحُ، فتصير رجلاً.

الرحلات!

الزواج! القرية الأولى

تمثال من الرخام

سيدة الوركاء: بعد أن وضعوني خلف الواجهة الزجاجية، طالعني في المجموعة المقابلة تمثالُه! إنّه هو!

كان عمري ١٣ عامًا عندما زوّجوني من ابن عمي شَمَشْ، وكان عمرُه ٩ سنوات. أمّه ماتت وهو في المهد على أثر ولادة قيصرية. فتبنّته أمي، ورضع من ثديها، وصار أخًا لي، أنا الوريثة الوحيدة لعرش الوركاء التي لا يحقّ لها أن تصبح

مَلكًا أبدًا لأنّ وظيفة الملك هي وظيفةُ الرجالِ فقط. ولأنّ النساء لا يحقّ لهنّ أن يصبحن ملوكًا، فقد زوّجوني من شَمَشْ ليصبح ملكًا حالما يبلغ سنَّ الرشد.

جاب الآلهةُ السبعةُ الرواقَ خلفَ الواجهة الزجاجية ذهابًا وإيابًا وقالوا: «لقد رضع الطفلُ من حليب أمها، فهو إذنْ أخوها. الطفل الذي سيولد من مثل هذا الزواج سيكون لعنةً. سيقتل أباه ويتزوّج أمه.»

بيْد أنّ عمّي ذهب إلى رواقٍ آخر وأخذَنا معه. زَوَّجَنا في السرّ، رغم الاعتراضات. جدّتي باركت الزواجَ وحافظتْ على سرّيته مع كبير الآلهة في المعبد. غسّل كبيرُ الآلهة يديه؛ تصوَّرَ في لبّه صورةَ البدء، وأخذ قبضةً من طينٍ ورماها في أحشائي. بعد سبعة أشهر أجروْا لي عمليةً قيصريةً لانتزاع النطفة.

قالت جدّتي وهي تريد الخروجَ من قاعدة التمثال: «لا أستطيع أن أقتلَ هذا الصبي!» فوضعتِ الطفلَ في مشحوف، وأرسلتْه إلى عرض المياه.

شبّ الطفلُ في أحضان امرأةٍ أخرى، في بلاد بعيدة، لا يعرف مَنْ هو ولا مِنْ أين جاء. وحينما أصبح فتًى قالوا له إنّ لعنةً ما تلاحقه، وإنّه سيَقتل أباه ويتزوّج أمه. فقرّر أن يترك أهلَه الذين تبنّوه ويرحل.

قال له والدُه بالتبنّي: «لا ترحلْ! نحن لسنا آباءك الأصليين.» فتململ الفتى واصطبعتْ جلدةُ تمثاله بحمرةٍ آدمية، وخاطب أمّه بالتبنّي: «ليس شرطًا أن يكون الابنُ قد خرج من رحم هذه المرأة ليكون ابنَها. أنتِ أمي! لقد أنشأتِني ولا أريد بكِ شرّاً!»

جاب الفتى الصحارى حتى هدّه التعبُ. حلّ به الحزنُ والأسى. بكى بكاءً مرّاً على فراق أهله، وهام على وجهه في الوديان. وعندما بلغ مفازات الأهوار، وعامَ بجسده القويّ في الطرقات المائية، ظهر له قطيعٌ من الخنازير الوحشية، فأصابه الرعب. رفع رأسَه إلى السماء وابتهل أن تحميه. ثم رفع فأسَه بيدٍ، واستلّ سيفَه من غمده باليد الأخرى، وانقضّ على الخنازير كالسهم فقتلها عن بكرة أبيها.

حين بلغ الطريقَ المائي المؤدّي إلى أبواب الوركاء التي لم يرها في حياته، طالَعَه موكبٌ عائدٌ من رحلة صيد موفّقة، فقتَلَ أميرَ الموكب، وقفز في المشحوف. أكل الفتى ما اصطاده الأمير، وكان الأميرُ القتيلُ أباه!

جاب الفتى الأهوارَ المحيطةَ بالوركاء شهرًا وشهرين وثلاثة، ثم عاد إلى المياه المؤدّية إلى أبواب الوركاء. عند بوّابة المدينة ظهر له من بطن المياه رجالٌ عقاربُ يحرسون البوّابةَ بجلالٍ مرعب. امتقع وجهُه هلعًا، ولكنّه استعاد رباطةَ جأشه واقترب منهم. سألوه السؤالَ اللغزَ الذي لا يعرفه إلاّ مَنْ تأتمنه المدينة، فأجابهم بفطنةٍ ذكيةٍ، وانفتحتْ له أبوابُ الوركاء.

ذلك هو جلجامش.

كان طولُه إحدى عشرة ذراعًا، وعرضُ صدره تسعةَ أشبار، وهيئةُ جسمه قويةً ومخيفةً كالثور الوحشي. وكان جميلاً وحكيمًا، ويبدو أكبرَ من عمره الحقيقي. رأيتُه، فتولّع قلبي به، وتولّع الفتى بي. وكنتُ أبحث بعد موت ابنِ عمي، زوجي السرّي، عن بعلٍ يتزوّجني ويصبح ملكًا.

حين اعترض مجمعُ الآلهةِ على الزواج، قتلهم جلجامش، ولم يُبْقِ إلاّ على مَنْ بارك الزواج: كبيرِ آلهةِ المعبد!

قال كبيرُ الآلهة قبل أن يبارك الزواجَ: «اِعلمْ أنّ المرأة التي تريد قد تكون أمَّكَ!» فضحك منه جلجامش وقال: «ما هذا الهراء؟ أنا لم أرَ هذه المدينةَ في حياتي!» فتزوّجني، وتوّجناه ملكًا على الوركاء. أنجب منّي أطفالاً خاض بهم غمارَ الحروب في كلّ مكان. كان أنكيدو أعزَّ أبنائه إلى قلبه، وكانت أشهرَ تلك الحروب حربُ الثور السماوي.

إبّان احتضار كبير آلهة المعبد، قرّر أن يَفضح حقيقةَ العلاقة بيننا، فعرفتُ أنّي أمُّ زوجي، وعرف الناسُ أنّ جلجامش ابني، وأنّ أطفالنا ملعونون إلى يوم الدين. فتحرّك تمثالُ جلجامش من قاعدته، ثم هشّم زجاجَ الواجهة، ولم يسمَحْ لكبيرِ الآلهة بأن يموتَ، بل قتله بنفسه، ثم قتلني غسلاً للعار. قتل أبناءه، إخوتَه، إلاّ واحدًا هو أنكيدو، ومَنَعَ أيَّ ذِكْرٍ لي على وجه البسيطة. وعندما مات أنكيدو، توحّش الرجلُ في الغابات، فأطلقوا عليه اسمَ جلجامش رجل العزلة!

الحريق!

القرية الثانية

تمثال من الرخام

سيدة الوركاء: أُغمضُ عينيَّ. ذاتَ حلم، رأيتُني أصيرُ حكايةً!

مبحرةً في مشحوف، أرى كاهناتٍ يتوغّلن في أعماق بحر القصب. يعتلين منبرًا من ردائي العريض. يرتّلن أدعيةً، ويَسْردن واقعةَ حياتي. يجوِّدْنَ نثرًا، ويغنّين شعرًا، ولي وعنّي يكتبن. يمزّقن أثوابًا ويلطمن، بينما هنّ يَغذَذْنَ السيرَ بعيدًا، وصورةُ المشحوف تبتعد وتتصاغر في أعماق بحر القصب.

هناك رأيتُ أنّني أصل قريةً مشارفةً لحدود صحراء الأهوار. وجدتُ نفسي وجهًا لوجه أمام تمثالي. رأيتُ الناس يستيقظون بعد ليلة طويلة من النوم العميق، فيجدون تمثالي ينتصب في وسط القرية.

ظلّ القرويون يتدفّقون لكي يقدّموا النذورَ. غنّوا للصنم، الذي هو أنا، جماعاتٍ جماعات. ضَربوا صدورَهم حتى دَميتْ. كان صنمي يلتمع. تمثالٌ أكبرُ من أيّ تمثال شاهدتُه في حياتي. تمثال يشبه شمعةً طويلةً نحيفةً منتصبةً. الشمس تَعْكس صورتي في السماء، وتَنْشر ظلّي في الأرض. حملتِ الرياحُ وأشعّةُ الشمس سرابَ تمثالي وبَعثتْ فيه روحَ الحركة. نظر القرويون إلى تمثالي، إلى السراب في السماء وفوق الأرض، وكانت وجوهُهم مكفهرّةً وأفواهُهم فاغرة. كان تمثالي يتمتّع بأشكال تكوينية إعجازية. كان آيةً في الجمال! وكان لدى التمثال حجرٌ لازورديٌّ يعمّ بالضياء الكونَ.

ذاتَ يوم، ظهرتُ قرب مياه الأهوار، حيث امرأةٌ غرق ابنُها ولم تفلحْ كلُّ الجهود في العثور عليه. تحرّك تمثالي، ورمى حجرًا في الماء فشقّ الغريقُ أعماقَ المياه.

وذاتَ يوم، ظَهرتُ في ساحة القرية حيث فتاةٌ أصابها مرضٌ خبيثٌ ولم يتمكن أيُّ حكيم من معالجتها. عند انسحاب خيط الظلام من خيط الضياء، حلمت الفتاة أنّ امرأةً جاءتها، ووضعتْ حجرًا فوق صدرها، ودقّت كما تدقّ الطبول. فزّت الفتاةُ من الرعب. رأت أمُّها ظلّ خيطٍ من الدم فوق نهد الفتاة، ظلّ ظاهرًا للعيان. وفي اليوم التالي شُفيتْ من المرض.

ذهب القرويون إلى جلجامش، كبيرِ آلهة القرية، وطلبوا منه أن يزوِّدهم ببرهانٍ على أنّ ذلك الصنم إنما هو معجزةٌ إلهيةٌ منه.

جلجامش : هذه هي أمُّ الأمهات. لا أحد يعرف بالضبط متى خُلقتْ. أمي نفسُها لم تَعرفْ شيئًا عن تاريخ سيدة الوركاء سوى أنها كانت موجودةً قبل ولادتها. سيدة الوركاء هذه موجودة منذ الأزل، وفي كل مكان. بيْد أنّها لا تمنح شرفَ الظهور إلاّ لمن تنتبه بصيرتُه إلى وجودها اللامرئيّ. والآن، ولأنكم حصلتم على شرف رؤيتها، فإنّ عليكم أن تساعدوها في الرحيل إلى قرية أخرى. عَمِّدوها بالتراب. ضعوها في رداء عدادة، ضعوها في سفينة تَمْخر عبابَ الأهوار. ضعوا لها في السفينة وصيفةً تطبّل، وأخرى تزمّر، وثالثةً تغنّي. ذكّروها بأنّي طلبتُ إليها أن تباركَ حريقَ المدن حين أشعلت النيران في ينابيع النفط على مشارف الصحراء! ذكّروها أنّها إذ حضرتْ وخلعتْ جبّتَها، طفرتْ قطراتُ العرق على نحرها. ذكّروها بأنّها رَفعتْ هامتها إلى السماء، وهوّست: «يا ربَّ النيران! يا ربَّ النيران!!». أَشعِلوا السهامَ بالنيران، وطَرّزوها على ظهرها. أَسْندوا صدرَها على الحجر اللازوردي. أسندوا ساقيْها على سيقان البرديّ. تذكّروا أنّ نصْبها لا يعمَّدُ إلاّ بالحريق!

سيدة الوركاء: رأيتُ كتلةً سوداء تَشعّ فيها خطوطٌ من الجمر. رأيتُ جلدَ التمثال يجفُّ ويغدو برْدةً تدثِّر عظامًا شعّت وانصقلتْ واتّخذتْ هيئة نصْب تذكاري من مرمر.

لزمتُ الصمتَ وحَدقتُ إليهم كيف أحرقوني. حدّقتُ إلى سيدة الوركاء، كيف توهّجتْ تحت اللهيب ورحلتْ فوق سفينة في جوف القطب. ورأيتُ كيف انبثقتْ من مكان عميق، في تجاويف بطنها ذبذباتٌ تجمّعتْ على جدار بطنها، فانبثق حجرٌ لازورديٌّ كبير.

رأيتُ التمثالَ، ورأيتُ إلى نفسي، وأصابني الصمتُ.

رجم اللوحات الممنوعة!
القرية الثالثة
تمثال من فحم

سيدة الوركاء: رأيتُ نفسي أنسردُ في حكاية: لم تأخذني السفينةُ إلى بحر أو جزيرة، بل أوصلتني إلى معبد تحت المياه. هناك رأيتُ صورتي، تمثالي، صنمي يتمدّد فوق الأرض. القرويون يَسْحلون جسدي في أروقة المعبد، بينما النساء يضربن صدورهنّ حتى تدمى. كانوا ينادونني في ذلك المعبد الغريق «ربّة بيت القصب،» «ربّة القدر والموت والعالم الأسفل،» «ابنةَ كبير الآلهة،» «أمّ الآلهة،» «وربّة المصير.»

إذا اندلعتْ حربٌ ما أخرجوا تمثالي النائمَ من المعبد واصطحبوه إلى ساحة الوغى. في إحدى المعارك خسروا جسدي، فأدركني المريدون وجعلوا لي بدلَ الجسد قاعدةً من ذهب. أدركوني فوضعوا أمامي سبعةَ أحجار لازوردية مجوّفة سمّوها أقداحًا. نصبوا لي فزّاعةَ طيور، وأوصوها أن تكون سادنًا، وغطّوا وجهي بستار شفّاف. إذا اختصم رجلٌ ما أو أراد سفرًا أو ختانًا أو زواجًا أو دفنَ ميتٍ جاء إليَّ، فملأ أحجارَ اللاّزورد السبعة خمرًا، وقضى الليل عندي. فإما أن يشرب الأقداح، أو يرجّها.

فتحتُ عينيَّ فرأيتُ تشابيهَ. رأيتُ خيولاً تُسرج، سيوفًا تُحدّ، خوذًا تُصقل، رماحًا وأقواسًا ونشّابًا. رأيتُ جلجامش، وكان في هيئة خالٍ لي. رأيتُه يقتل إخواني واحدًا بعد الآخر في حروب عديدة ويعلّق رؤوسَهم فوق الرماح. في كلّ حرب أَدفن إخواني وأَحزن عليهم ثمانين يومًا وثلاثَ ليالٍ. أخي الأصغر يُقتل على يد خالي الذي كاد أن يخسر النزال. خالي يرفض أن أدفنَ أخي. أتحدّى خالي وأدفنه؛ فرفاتُ الموتى لا يصحّ أن يبقى في العراء. خالي يحفر قبر أخي ويدفنني معه حيّةً في القبر ذاته.

رأيتُ نفسي أقرّر الانتقام! تردّدتْ أنباءٌ عن طواف روحي في جوار القبر. قيل إنّ الناس التقوا روحي، ما عدا جلجامش الذي قال إنّ البشر أصابهم الجنون، وصاح: «إنّ ما يراه الناس وهمٌ! ممنوع من الآن فصاعدًا ترويجُ الوهم!»

ومنذ ذلك اليوم أخذَ كلُّ من يريد أن يقارعه يحمل تميمةً من الفحم ويرسم بكحلها رسمًا صغيرًا فيه شيءٌ من وجهي. ورغم تيّقن خالي من موتي، فقد أرسل ابنَه أنكيدو ليقتلني مرةً أخرى. بحث عنّي أنكيدو في كلّ مكان ودمّر أيّ شيء ظنّ أنّه يحوي رمزًا يدلّ عليّ. لكنّ جلجامش ظلّ يعثر على رسم لي كلّ يوم. وذات صباح صرخ فجأةً: «ليس مهمّاً أن تكون الإشاعاتُ حقيقةً أو وهمًا. المهمّ هو ما يصدّقه الناسُ. الإيمانُ أقوى من الحقيقة. وسيدة الوركاء، رغم أنّها غير حقيقية، تعيش في أوهام الناس!» وقرّر أن يقتل كلَّ من يحمل الوهم.

أنا وهم ممنوع!

تمثال من شجر

أرسل جلجامش ابنَه أنكيدو إلى قبرٍ سرقه الناسُ من قاع الأهوار وشيّدوه في جزيرةٍ بعيدة، جزيرةِ الطين، وأحالوه مزارًا لي. فاستحلتُ إلى أشجار خمس تَحْرس قبري! موقعي غريب، وطريقةُ وقوفي أكثرُ غرابة: تحسّ بمجرد النظر إليّ أنّني اجتُثِثْتُ من غابةٍ ما... أو ربما تركتني الغابة، فارتبكتُ وهرعتُ إلى بعضي، وخوفًا من السقوط تشبّثتُ بسيقاني الخمس!

قطع أنكيدو رؤوس الأشجار الخمس! **رأسي أنا!**

تمثال من جذور

بيْد أنّي كنتُ قد غادرتُ روحَ الشجر وحللتُ في قلب جنيّة الجذور، جذور الأشجار المقطوعة الرؤوس. وقد اعترضتِ الجنيةُ أنكيدو في المرة الثانية (**الجنية التي هي أنا! الجنية التي أعادته أعقابه!**)، فأرسل جلجامش ابنَه أنكيدو للمرة الثالثة ليرجمني، وأوصاه:

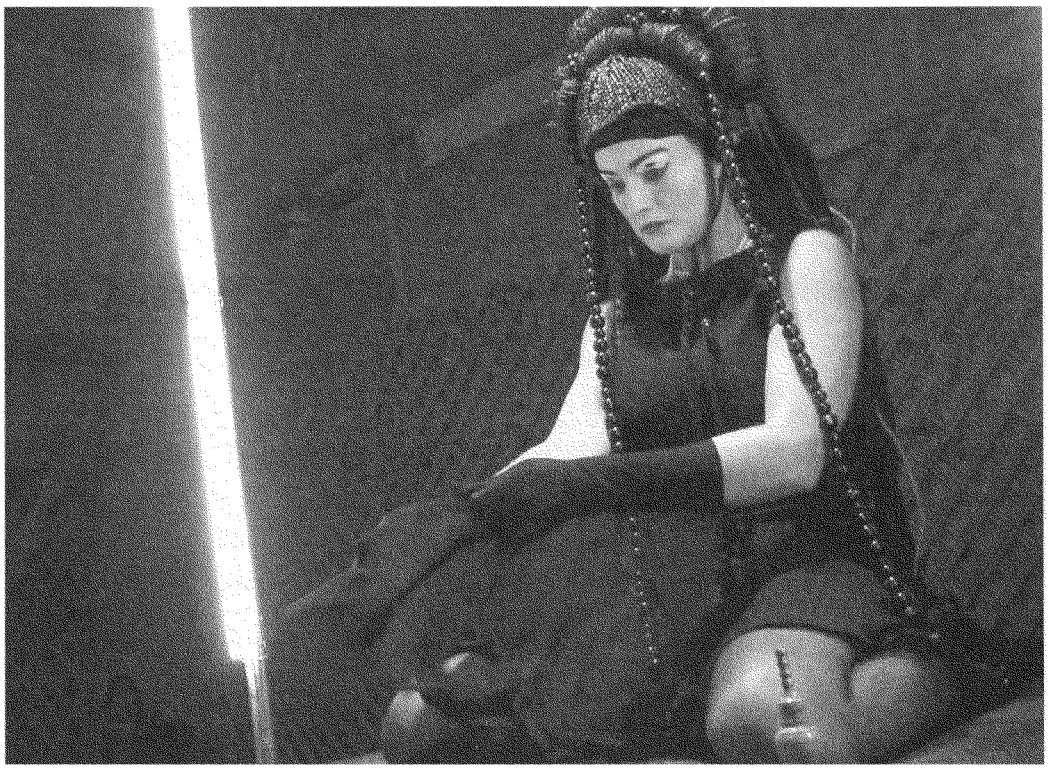

جلجامش : اصعدّ أولاً جزيرةَ البعوض بعد مغيب الشمس وقدّم الدعاءَ. كدّسْ جيوشَ البعوض في أكياس خيش كبيرة، ثم عرّجْ يسارًا على الأشنات الأرجوانية. غنِّ موّالاً طويلاً، ثم اذهبْ إلى قرية الريح التي ستحملك إليها. إذا وصلتْ بيتَ القصب، معبدَ سيدة الوركاء، دُرْ حوله، لا من أجل أن تحيي صاحبةَ المعبد، الجنيةَ الرهيبةَ سيدةَ الوركاء. انسَ كلمات العشق والحب التي بقيتْ كلَّ مرةٍ تدور في خلدك وأنت تقتلها. طهّرْ قلبَك من كلّ حب. وإذ ترى سيلاً بشريّاً دائرًا بالمشاحيف حول البيت، اصرخْ صرخةَ البراءة: «أنا لم أعد أحبّها!» وإذا بَلَغتِ الجموعُ الحجرَ الأبيضَ البارزَ فوق الماء ولمستْ أحد أضلاعه، فاضربِ الحجرَ بالفأس دون هوادة.

سيدة الوركاء: أنا ذلك الحجر الأبيض! لقد استحلتُ صخرةً بيضاء. ثمانيةٌ جلبوني من كهوف الشمال. طولُ كلّ ضلع من أضلاعي ٣٦٠ كفّاً. على متن صخرتي شيّدوا بيتًا مغطّى بالستائر، وقارنوه بالبيت المقدّس، بيتِ القصب.

جلجامش : أضربْ بالفأس دون هوادة. اخلعْ رداءكَ ولوّحْ به، وارقصْ وأنتَ عارٍ. وعندما ترى الناس عراةً يعومون حول الصخرة، صفّرْ معهم وصفّقْ: «اللعنة عليكِ يا سيدة الوركاء، اللعنة/اللعنة لاً ملعون غيرك، اللعنة». ولن يكتمل الطقس قبل أن يَحْلق الناسُ رؤوسَهم عند جرف الصخرة ويلقي كلٌّ واحدٍ منهم شعَر رأسه مخلوطًا بالدقيق المبلّل بحليب الإبل هناك. ثم ارمِ المعبدَ بسبعةٍ من أكياس البعوض، قبل أن تذبح الذبائح. قدّم الأضاحي غروبًا وفجرًا قبل أن تلجَ بيتَ القصب. دعْ كلّ فرد من العسس يُذبح ويُرجم حتى غروب شمس اليوم الثالث عشر. بعد ذلك ادخل المعبدَ وانتزع الحجرَ اللازوردي، قلبَ سيدة الوركاء، واقطعْ رؤوسَ التماثيل!

سيدة الوركاء: في المعبد كان ثمة ٣٦٠ تمثالاً من الحجر. بفأسه هَشَّمَ أنكيدو رؤوسَ التماثيل، وكان يصرخ: «هذه هي طعنةُ الحقيقة.» وبعد أن مات كلُّ شيء أصبح بيتي وجزيرةُ الطين أطلالاً عصفتْ بها الرياحُ وعبثتْ فيها الخنازيرُ الوحشية.

لقد قَتَلَ أنكيدو سيدةَ الوركاء وأحرق السادَن أيضًا. وعندما عاد إلى جلجامش، سأله: هل رأيت شيئًا أثناء الهدمِ أو بعده؟

أنكيدو : ماذا تعني؟

جلجامش : شيئًا ما أو روحًا ما؟

سيدة الوركاء: حدّقَ أنكيدو إلى أبيه متعجّبًا وقال: لا!

جلجامش : يا ولدي، أنتَ لم تدمّرْها. عدْ إلى هناك! دمّرْها!

سيدة الوركاء: عاد أنكيدو إلى الأطلال غاضبًا ومرتبكًا. وعندما وصل إلى جرف الجزيرة حَمَلَ فأسَه بيده. فجأةً خرج رأسٌ مقطوع من جذور الأشجار، منفوشَ الشعر، وفمه يصرخ: «يبووووو!» ضرب أنكيدو الوجهَ الصارخَ ضربةً جدعتْ أنفه.

ذلك الوجهُ كان أنا!

تمثال من لحم

ولمّا وصلَ أنكيدو قريةَ الرزازة وجد جسدَ امرأةٍ ميتةٍ بلا رأس، مسجّاة في محراب شيخ القرية، وعند رقبتها كتابٌ قديم. استوضح أنكيدو الشيخ، فأخبره أنّها جثةُ امرأة يستخدمها أهلُ القرية في الأوقات العصيبة: «إذا هطلت الأمطار وأصابنا الغرقُ وهاج البعوضُ والقارص، نخرجها ونضعها في وسط المياه. في اليوم التالي نُدْخلها البيتَ. في اليوم الثالث يتوقّف المطر عن الهبوط ويموت البعوض.»

تلك الجثة كانت أنا أيضًا!

قطع أنكيدو رأسَ الشيخ وحمل جثةَ المرأة. أَجبر القرويين على أن يَحفروا ١٣ قبرًا متفرّقةً في أشنات القصب. في عمق الليل وَضَعَها في دوبة وذهب وحده. حفر قبرًا جديدًا، القبرَ الرابعَ عشر، ودفنها فيه، فلم يعرفْ أحدٌ مكانَها إطلاقًا.

ذاتَ يوم حلم أنكيدو أنّ امرأة جاءت إليه، شقّت بطنه وأكلتْ كَبده.

تلك المرأة كانت أنا أيضًا!

تمثال من حجر

راح الناسُ يقدّسون الحجارةَ والنصبَ المجلوبة من أطلال المعبد المهدّم من التماثيل الثلاثمئة والستين المصنوعة من التمر أو الحجر أو القصب. إنْ رحل شخصٌ عبر الأهوار غاص تحت الماء، فبحث عن أربع حصوات، واختار أفضلها، وعبدَها. وحين يعثر على واحدة ويكاد يقطع أنّها تعود في الأصل إلى البيت المقدّس، يستخدم الحجر رمزًا إلى البيت المقدّس، فيطوف حول الحجر، ويزيّنه، ويرقص. وإذا بحث شخصٌ عن مكان لينام، أخذ معه الحجر الذي عبد وترك الحجارة الأخرى، فصارت هذه المعبد المهجور.

وعندما نهب العبادُ أحجارَ البيت المقدّس احتار البشر: وسألوا «أين ربي؟» «مَنْ سنَعْبد بعد الآن؟ وكيف؟»

بحثوا عن الأحجار في الصحراء المجاورة، حيث انتشرتْ أخبارُ سيدة الوركاء. في الصحراء حملتْ تلك الحجارةُ قدسيةَ المعبد المهدّم. وهكذا امتلأت الصحراء بالأحجار (الآلهة)، بالتماثيل، بالأصنام.

تلك الأحجار جميعًا هي أنا!

تماثيل صالحة للأكل!

القرية الرابعة

تمثال من تمر

سيدة الوركاء: رأيتُني قبل ٧٠٠ عام أُدفن في مقبرة جماعية مع تماثيل قُتلتْ للتوّ. حين أوصلونا إلى عمق عشرة أمتار تحت الأرض أصبحت الدنيا باردةً. تجمّد الصخرُ الذي صنعونا منه وأصبح من المستحيل أن نتحادث. بعد سنين طويلة حَفَرَ فلاحٌ عميقًا في أحد البساتين، التي كانت يومًا ما مقبرةً، بحثًا عن مياهٍ جوفية. فوجدني مدفونةً في الطين، من دون أن يكون قد نال وجهي أدنى أذًى. فأخذني، ومعه رهطٌ طويلٌ من البشر.

يقول الكابتن فانس كوهنر من القوات الأميركية إنّه تلقّى معلومةً قادته إلى أحد الشباب. وحين قابل الشابَّ قاده الأخيرُ إلى رجلٍ مسنّ، قادهم بدوره إلى الرجل الحقيقي الذي سرق سيدةَ الوركاء، وفاوضهم أسبوعًا كاملاً قبل أن يدلّهم على مكاني.

وضعوني في مشحوف دفعوه نحو أعماق الطين اليابس وأبحروا به. هناك، لاحت لي قريةٌ من بعيد. رأيتُ طفلاً ركض صوبي، سألني مَن أنا، ومَن هؤلاء الرجال؟

ـ جئت أزور أخي! لقد مات هنا! لقد طلب منّي أن أحضر!

نظر الصبيّ إليّ واختفى بمثل لمح البصر. نظرتُ حولي فلم أر أحدًا! وبعد ساعات من الصمت اهتزّت الأرض حولي. سمعتُ أقدامًا تدكّ الأرضَ بالإيقاعات. هنا وهناك نشيجٌ مكتوم. سمعتُ غناء. طبّلتْ وصيفةٌ وتأوّهتْ، وضربتْ وصيفةٌ أخرى إيقاعًا وتأوّهتْ، وطلبتْ وصيفة ثالثة إلى الجموع أن تدهس تلالَ البلح بالأقدام حتى يصيرَ كالطحين.

غناء! تأوّه! نواح! وقعُ أقدام راحت تَغْرق في صرير الفاكهة التي لانت! أسمع عجينَ التمر ينفذ من خلل أصابع الأقدام. نحيب مكتوم. صرخات. لطم. يبووووو! أصواتُ أقدامٍ كالرحى تصطدم بأقدام أخرى.

فجأة انكشف المشهدُ الصوتي عن صورة: هياكل خشبية في هيئات بشرية خرافية الحجم مسجّاة على الأرض. إلى جانب الهيكل الكبير، سُجّيتْ جثةُ جلجامش معطّرةً بعبير السمسم. هيئة جلجامش هيئةُ ميتٍ وحيّ في الوقت ذاته. على محيّاه ظلُّ ابتسامة. راحت النساء يحشون الهياكلَ بالتمور التي بَدَتْ كالطين وهن يغنّين ويندبن. نادت النسوة على الرجال لكي يوقفوا الهياكل حالما امتلأتْ فصارت أصنامًا.

ـ لقد وُلدتْ ربّةُ الوركاء من التمر. لقد وُلدتْ من التمور!

أَفتح عينيَّ. الناس ينظرون فاغري الأفواه. في قلوبهم أفكارٌ غيرُ قابلة للتحوُّل إلى كلمات. في أفواههم كلماتٌ تجمّعتْ وتخاف أن تنطلق من الفم. الرياح تداعب ساقيَّ. التراب يلتفّ حول نفسه حتى يصير دوّامةً تجرّني إلى الأعماق. أسمع فقاعاتٍ مائيةً وسط التراب تنفجر في أعماقِ دوّامة. أرى الدوّامة تأخذ شكلَ زهرةٍ من الماء وتحيط بجسدي. ينبثق الصمت، وكأنّ الكون توقّف عن الحركة.

من بعيدٍ هبّ صوتٌ في البريّة، وكأنّه صوتٌ قادمٌ من السماء. ظهرتْ بجانب أكبر التماثيل امرأة: عدّادةٌ ترتدي رداءَ ربّة الوركاء، ردائي!

وبينما كانت العدّادةُ تلعب دوري، رمت الرداءَ المقدّس وبرزتْ عند نحرها قطراتُ العرق. نصّبوها ربّةً كبرى على الآلهة. عبدوها ومنحوها صوتًا. طلبوا إليها أن تغنّي، فغنّت. طلبوا إليها أن تعمِّد التماثيلَ، ففعلتْ. طلبوا إليها أن تحكي قصةَ البدء، فقصّت، وقصّت، حتى توقّفتْ عند جلجامش. نظرتْ إلى جلجامش المسجّى كالميت الحيّ وصاحت:

ـ يبووووا! يا عبدَ التراب والظلام والضياء، إذا جاءتك سيدةُ الوركاء في العالم الأسفل فافعلْ ما تطلب إليك. وبعد أن تحقّق مطلوبَها ذكّرْها باسمكَ: قل لها إنّك أخوها جلجامش! قل لها إنّك خنتَها، فستسامح! قلْ إنّك سرقتَ فطورَها، فستسامح! قل إنّك واريْتَ حبّها الثرى، فستسامح! ردّدْ أمامها: «وهبتُكِ ما أَمْلك!» فإنّ روحها، روحَ الغمر، هي التي ستحفظ رفاتَكَ إلى أبد الآبدين.

مسحت العدّادة من عينيْها الكحلَ، ورسمتْ حرفَ الواو بالسواد على أسفل بطنها، وراحت ترقص رقصًا دورانيّاً، وتَلطم صدرَها، حتى احمرّ نهداها. هبطتْ إلى الأسفل، واقتطعتْ جزءًا من التمثال والتهمتْه، فتبعتْها الأخريات. ابتلعتُ ريقي. ومن شدّة الخوف صدرتْ من إستي ضرطة!

لقد التهم النسوة تمثالي عن بكرة أبيه!

...

نعم... عندما سقطتْ بغداد، أعني عندما فتحْنا بغدادَ، أعني عندما حرّرنا بغدادَ.. اعترضتْنا صواريخُ انطلقتْ من المتحف.. لهذا لم ندخل.. أتفهم؟

لقد سرقوا سيدة الوركاء. لقد سرقوا القاعدةَ نفسَها.

سرقوا ماذا؟

سيدةَ الوركاء.

سيدة الـ.. الـ.. هل بإمكانكَ أن تتهجّى الاسم؟

سيدة.. الـ.. ور.. كاء.

الـ.. ور.. ور؟

واو.. راء.

عفوًا؟

واو.. راء.

كاف.. ألف!

خاتمة النار!

سيدة الوركاء: أُغمض عينيَّ. بسرعة عصيّة على الوصف. تمرّ بي حكاياتُ العالم الماضي. لقد اندلعت النيرانُ العملاقةُ من ينابيع النفط. شظايا عظيمة من الإسفلت تشقّ عنانَ السماء وتَسقط حممًا على مشارف الصحراء. أما أنا فمتّكئة على قصبة برديّ، أنظر إلى الدخان يتصاعد ويدور حولي. أنا لستُ سوى تمثالٍ من فحمٍ حجريّ أسود تشعّ من ثناياه خطوطٌ من الجمر.

إشعاعاتُ النيران الهائلة تعمي البصر. أَنظر في إنسان عيني. تَظهر بقعٌ صغيرةٌ ومتوسطةٌ وكبيرةٌ، بشتى الألوان، في سماء عينيّ الناظرتيْن إلى الداخل.

أحدِّق إلى تلك البقع الغريبة الألوان، حتى تذوبَ تمامًا. بقعة كبيرة من الضباب والدخان تبقى: إنَّها هيئة بشريّة. أُمعن النظر بالكائن. يمعن الكائنُ النظرَ بي. أتمعّن بالبقعة، فترتدي البقعة ملامحَ رجل: جلجامش!

لقد حطّموا تمثالَه. أنزلوه من قاعدته المرمرية ومرّغوه في الوحل. سَحَلوه عبر المدن. دمّروا جسدَه، وجَدعوا أنفَه. من أذنه المهشّمة ظهرتْ بقايا أسلاكٍ فولاذيةٍ كانت تربط الصيوانَ بالرأس الحجري.

تغيم الأشياءُ حولنا. نجد أنفسَنا فجأةً في قلب عاصفة. صمتٌ صارخ. تحدّق تماثيلُنا واحدها إلى الآخر. تمثالي يُسرق. تمثالُه يسقط فوق الأرض. لا مجال للجدل والفضائح وما شاكل ذلك! كلُّ الخطايا التي تسبّبنا بها نتعالى عليها الآن: التمثيلُ بجثث التماثيل مِنْ دون أن تَعْرف مَن هو الشرير ومَنْ هو الخيّر؟

البشر؟

مَن هم هؤلاء؟

أنا لا أؤمن بعالم أفضل. الألم الذي أرزح تحته مستديمٌ وقاسٍ. كنتُ أودّ أن أواسيَكم من خلال آلامي! ولكنْ، بعد اعترافاتي هذه نفسها، لا شعور لديّ بأنّ ثمة تطهيرًا ما. ليس بإمكاني الحصولُ على ما أطوّر نفسي به وأصبح أكثر فهمًا لنفسي. ليست ثمة حكمةٌ يستقيها المرءُ من حكاياتي. ولم يكن لديّ أيُّ سببٍ منطقي لكي أعترف أمامكم.

الأمر واضح. الأمر مدبّر. الهدف هو التخريب. ممنوعٌ دخولُ المتحف حتى يَحْضر المسؤولون. تسألني عن شعوري؟ أشعرُ وكأنّني فقدتُ أهلي. لقد أصابني الرعبُ الحقيقي في اليوم التالي، عندما عرفتُ أنّ اللصوص أفرغوا الأقبية السرية حيث تقبع النسخُ الأصلية.

ليييش؟!

لماذا؟

نعم! هذا هو إذن كلُّ شيء عن المتحف الوطني العراقي!

(نحيب متقطع)

الناس؟

من هم هؤلاء؟!

بلجيكا